الدرس العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فيقول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، يقول في كتابه: [**القواعد الحِسَان المتعلقة بتفسير القرآن**]:

القاعدة الثالثة عشرة:

طريقةُ القرآنِ في الحِجَاجِ والمُجادَلةِ معَ أهلِ الأديانِ الباطلة

قدْ أمرَ الله بالمجادلة بالتي هي أحسن، ومَنْ تأمَّل الطرق التي نصب الله المحاجَّة بِها مع المبطلين على أيدي رسلهِ؛ رآها مِنْ أوضحِ الحُججِ وأقواها وأقومها وأدلِّها على إحقاقِ الحقِ وإزهاقِ الباطل، على وجهٍ لا تشويشَ فيهِ ولا إزعاج، فتأمَّل مُحاجَّة الرسل مع أممهم، وكيف دعَوْهم إلى عبادة الله وحدهُ لا شريكَ لهُ، مِنْ جهة أنَّهُ المتفرِّد بالربوبية، والمتوحِّد بالنعم، وهو الذي أعطاهم العافية، والأسماع، والأبصار، والعقول، والأرزاق، وسائرَ أصنافِ النعم، كما أنَّهُ المنفردُ بدفعِ النقم، وإنَّ أحدًا مِنَ الخلقِ ليسَ عنده نفعٍ ولا دفعٍ، ولا ضرٍّ ولا نفعْ، فإنَّهُ بمجرَّدِ معرفة العبدِ بذلك واعترافهُ به لا بدَّ أنْ ينقادَ للدين الحق الذي بِهِ تتمُّ النعمة، وهو الطريقُ الوحيدُ لشكرِها.

وكثيرًا ما يحتجُّ على المشركينَ بِهِ في عبادتهِ بإلزامهم باعترافهم بربوبيتهِ، وأنَّهُ الخالقُ لكلِّ شيء، والرزاق لكلِّ شيء، فيتعيَّن أنَّهُ المعبودُ وحدهُ.

فانظرْ إلى هذا البرهان، وكيفَ ينتقلُ الذهنُ منهُ بأوَّل وَهْلة إلى وجوبِ عبادة مَنْ هذا شأنهُ، ووجوبِ الإخلاصِ له. ويجادلُ المبطلينَ أيضًا بذكرِ عيبِ آلهتهم، وأنها ناقصة من كل وجه، لا تغني عن أهلها شيئًا، ويُقيمُ الأدلة على أهلِ الكتاب بأنّهم لهم مِنْ سوابقِ المُخالفاتِ لرسلهم ما لا يُستغرَبُ معه مخالفتهم لمحمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وينقضُ عليهم دعاويهم الباطلة وتزكيتهم لأنفسهم، ببيانِ ما يضادُّ ذلك مِنْ أحوالهم وأوصافهم، ويُجادلهم بتوضيحِ الحق وبيانِ براهينهِ، وأنَّ صِدقَهُ وحقيّتَهُ تَدفعُ بمُجرَّدِها جميعَ الشُّبَهِ المُعَارضةِ لهُ. ﴿فَمَاذَا

بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [سورة يونس، من الآية:٣٢]؛ وهذا الأصلُ في القرآنِ كثير؛ فإنَّهُ يُفيدُ في الدّعوة للحق، وردِّ كلِّ ما يُنافيه.

ويُجادلُهُم بوجوبِ تنزيلِ الأمورِ منازلها، وأنَّهُ لا يَليق أن يَجعلَ للمخلوق العبدِ الفقير العاجزِ مِنْ كلِّ وجه، بعضَ حقوقِ الرب الخالق الغني الكامل مِنْ جميعِ الوجوه.

ويتحدَّاهُم أنْ يأتوا بكتابٍ أو شريعةٍ أهدى وأحسن مِنْ هذه الشريعة، وأنْ يُعارِضُوا القرآن فيأتوا بمثلهِ إنْ كانوا صادقين.

ويأمرُ نبيَّهَ بمباهلة مَنْ ظهرت مُكابرتُهُ وعِنادهُ فينكُصُونَ عنها؛ لعلمهمْ أنَّهُ رسولُ الله الصَّادق الذي لا يَنْطقُ عن الهوى، وأنَّهم لو باهلوهُ لهلكوا.

وفي الجملة لا تجد طريقًا نافعًا فيهِ إحقاقُ الحقِّ وإبطالُ الباطلِ، إلَّا وقدْ احتوى عليهِ القرآن على أكملِ الوجوه.

الشرح:

فهذه القاعدة الثالثة عشرة من [**القواعد الحِسَان**] للإمام العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

وسبق أن مرَّ معنا في القاعدة العاشرة: طريقة القرآن في الدعوة -دعوة الكفار- على اختلاف مللهم ونِحلهم، وهذه القاعدة قد تكون فرعًا عن تلك القاعدة الأولى؛ لأن القاعدة الأولى عامة في طريقة دعوة الكفار عمومًا، على اختلاف الملل والنحل، وهذه القاعدة تتعلق بمجادلة أهل الأديان الباطلة، ومن المعلوم أن المجادلة هي مرحلةٌ في الدعوة لا يصار إليها ابتداءً، وإنما يُصار إليها مع من يحتاج المقام معه إلى مجادلة، ولهذا قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [سورة النحل، من الآية:١٢٥]؛ هذه الآية استنبط منها غير واحدٍ من أهل العلم أن فيها دلالةً على مراتب الدعوة بحسب حال المدعوين؛ لأن من يُدعون إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أحوالهم مختلفة:

- منهم الراغب في الحق، القريب منه، الحريص عليه.
- ومنهم من عنده شيءٌ من العناد، والممانعة، وعدم الاستجابة، وعنده شيءٌ من التعالي، أو نحو ذلك.

- ومنهم من عنده شُبهة أو شبهٌ عديدة حالت بينه وبين الاقتناع بالحق.

فهذا الثالث هو الذي يحتاج إلى المجادلة، والأول يكفيه أن يُدعى بالحكمة واللين، والمعاند يحتاج إلى موعظة؛ لعلها توقظ قلبه بأن يخوف بالله وعقابه وسخطه ونقمته، وما أحله للظالمين، وما أعده لهم من العقاب، ولهذا تنوعت المراتب بحسب حال المدعوين، قال: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾؛ هذه مرتبة، ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾؛ هذه مرتبة، ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ هذه مرتبة ثالثة، وكلٌّ من هذه المراتب الثلاث يُصار إليها بحسب حال من يُدعى.

فإذا كان الذي يُدعى راغبًا في الخير، قريبًا منه، حريصًا عليه؛ فإنه يكفيه أن يُدعى بالحكمة، يُذكر له الحق بدليله مرغبًا له في فعل الحق.

وإذا كان عنده شيءٌ من العناد والإباء والامتناع؛ فإنه يحتاج إلى موعظة، والوعظ يكون فيه شيء من التخويف والإنذار والتحذير من نقمة الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وعقابه وسخطه.

وإذا كان من يُدعى عنده شيءٌ من الشبهات التي حالت بينه وبين الحق وقبوله؛ فإنه يُجادل، وتكون المجادلة له بالتي هي أحسن، قال: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، وفي الآية الأخرى قال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [سورة العنكبوت، من الآية:٤٦]، وأهل الكتاب عندهم شبهات، أهل الكتاب يختلفون عن غيرهم عندهم شبهات.

ولهذا لما بعث النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ معاذًا إلى اليمن نبهه إلى هذا الأمر، نبهه أنه سيأتي قومًا أهل كتاب، قال: «**إنك ستأتي قومًا أهل كتاب**»، وهذا فيه أن الداعي إلى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لا بد أن يكون عنده شيءٌ من البصيرة بحال المدعو، أن يكون عنده خلفية عن المدعو، ما هو وضعه؟ هل هو من الراغبين الحريصين على الخير؟ هل هو من أهل العِناد؟ هل عنده شبهات؟ إذا كان عنده شبهات ما نوعها؟ حتى تكون دعوته له إلى دين الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بحسب حال الرجل.

وقوله سبحانه: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ وكذلك قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ هذا يُستفاد منه أمورًا عديدةً؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ ولم يُحدد لنا نوعًا معينًا من الحُسن نصير إليه، ونعاملهم به، قولًا أو فعلًا، فدل ذلك على أن كل أمرٍ حسن في ضوء قواعد الشريعة

وأصولها وكلياتها يفيد المدعو وينفعه يصار إليه، ويعامل به؛ من إلانة القول، وطيب الحديث، وقوة الحُجة، والعناية بإزالة الشبهة، والصبر على المدعو الذي يكون مبتلى بشيء من هذه الشبهات يصبر عليه، ويترفق به، ويحلم معه، يُعامله هذه المعاملة الحسنة لعل ذلك أن يكون سببًا لهدايته ونجاته من النار ومن سخط الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ولهذا لما قرر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه القاعدة وهي مجادلة أهل الأديان الباطلة أيًّا كانت أديانهم، وكل دينٍ ليس هو دين الإسلام فهو باطل؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٨٥]، وقال جل وعز: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٩]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة، من الآية:٣]؛ فأصحاب الأديان الباطلة من أجل محاجتهم ومجادلتهم يحتاج الداعي إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يقف على طريقة القرآن في إقناع هؤلاء وإيصال الحق لهم، وإزالة الشبهة عنهم.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعرض هنا شيئًا من طريقة القرآن في بيان ذلك، وبدأ كلامه بقوله: (**قدْ أمرَ الله بالمجادلة بالتي هي أحسن**)؛ مر معنا في آيتين، ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ فأمر جَلَّ وَعَلَا بالمجادلة بالتي هي أحسن، وعرفنا أن المجادلة بالتي هي أحسن أن يستعمل الداعي إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قدر جهده وطاقته ما يحسن ويجمل من القول والفعل؛ لأن الفعل أيضًا له دور في قبول الحق، فرقٌ بين من يدعوك بوجهٍ طليق مبتسم، وبين من يدعوك بوجهٍ عابس.

فرقٌ بين من يدعو بإلانة القول: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [سورة طه، من الآية:٤٤]؛ وبين من يدعو بفظاظة في القول وغلظةٍ وشدة، فرقٌ بين من يسمع الشبه التي عرضت للمبطل فحالت بينه وبين قبول الحق؛ ليفندها شبهةً شبهة ويصبر عليه ويحلم، وبين من يدعوه ولا يصبر عليه ولا يحلم.

ولهذا قال العلماء: ثلاثة أمور إن لم تتوفر في الداعي إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا تؤتي دعوته أُكُلها، وهي: العلم، والصبر، والحِلم.

هذه الأمور الثلاثة ركائز: علمٌ وصبرٌ وحِلم.

وهذا المدعو مُبتلى بشبهات حالت بينه وبين الحق، فإذا كان عندك علمٌ يزيل الشبهة، وعندك صبرٌ تحتمل فيه أذاه وجفوته، وكبره وعناده، وعندك حلمٌ أيضًا تُعامله به، وتتأنى معه وتتروى في دعوته إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإن مثل هذا يؤتي -بإذن الله- ثماره، وكل ذلكم داخلٌ تحت قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

قال: (**ومَنْ تأمَّل الطرق التي نصب الله المحاجَّة بِها مع المبطلين على أيدي رسلهِ؛ رآها مِنْ أوضحِ الحُججِ وأقواها وأقومها وأدلِّها على إحقاقِ الحقِ وإزهاقِ الباطل**)؛ وهذا تأصيل أراد به الشيخ أن يربط الداعي إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بطريقة القرآن، وأن يكون نهجه في الدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نهج القرآن، يسير في ضوء كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: (**على وجهٍ لا تشويشَ فيهِ ولا إزعاج، فتأمَّل مُحاجَّة الرسل مع أممهم، وكيف دعَوْهم إلى عبادة الله وحدهُ لا شريكَ لهُ**)؛ من جهة ثم أخذ يفصل، قال: (**وكيف دعَوْهم إلى عبادة الله وحدهُ لا شريكَ لهُ**)؛ وهذا هو الأصل الذي يُدعى إليه، والذي اتفقت الرسل جميعهم على الدعوة إليه. ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٣٦]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٢٥]؛ فهذا هو الأصل الذي يُدعى إليه، مع أن بعض المشتغلين بالدعوة غاب عنهم هذا الأصل ولم يعتنوا به، ولم يهتموا بدعوة الناس إليه، بل أصبح همُّ بعضهم وغاية جهده في دعوته أن يُقنع الكافر بوجود الله، أو أن ينصب الدلائل والبراهين المثبتة لوجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حتى صار أمر التوحيد عند بعضهم إثبات وجود الله، والإقرار بربوبيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا جانب اشتغل به من كان لهم عناية بالكلام الباطل الذي ذمه السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، فترى بعض هؤلاء يكتب الكتب المطولة في ذكر البراهين والدلائل المثبتة لوجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكلما زادت الدلائل عنده -وهي دلائل متكلفة منطقية عقلية-؛ كلما زادت هذه الدلائل عنده؛ زادت مكانته حول الحواشي والأتباع.

ولهذا يذكرون عن أحد كِبار هؤلاء أنه مع حاشية من طلابه وتلاميذه في الطريق، فمروا بامرأةٍ عجوز على الفطرة، فرأت هذا الرجل مع هذه الحاشية قالت: من هذا؟ فأحد تلاميذه غضب، قال: هذا فلان ما تعرفينه؟! عنده ألف دليل على وجود الله، فقالت المرأة: لو لم يكن في قلبه ألف شك لما وُجد عنده ألف دليل، يعني أن الأمر أظهر من أن تُطلب له هذه الأدلة.

وَهَلْ يَصِحُّ فِي الْأَذْهَانِ شَيْءٌ ❊❊ إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلِ

الآن لو أن شخصًا جاء في وضح النهار وقال: أنا سأثبت لكم أن الشمس موجودة بالأدلة المقنعة، أسمعوا أدلتي: الأول، الثاني، الثالث، الرابع، ويُعدد لهم أدلة يثبت لهم أن الشمس طالعة وأنها موجودة، دليلًا تلو الآخر، ما فائدة مثل هذا الكلام؟! وما ثمرته؟! ثم لو أنه أثبت وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالأدلة ليس هوهذا التوحيد! لو أنه أثبت وجود الله وآمن به وأقر لا يكون موحدًا حتى يعبد الله مخلصًا له الدين، كما مر معنا: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾؛ فالتوحيد الذي دعت إليه الرسل، ووقعت فيه الخصومة بينهم وبين أقوامهم، هو توحيد الله وإخلاص الدين له، وإفراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعبادة.

وأما وجود الله فأمرٌ مركوز في الفطر، ولا يجحده إلا مُعاندٌ مستكبر، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ [سورة النمل، من الآية:١٤]؛ وقال موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في خطابه لفرعون: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:١٠٢]؛ أي يا فرعون. ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:١٠٢]؛ أن تعرف في قرارة نفسك، لكن جحدك لذلك هو ظلمٌ وعلوٌّ واستكبار.

فالشاهد: أن طريقة الأنبياء في الدعوة إلى الله هي إقامة البراهين على أن المعبود بحقٍّ هو الله، ولا معبود بحقٍّ سواه، هذا هو الغاية والمقصد من دعوتهم.

ثم تتنوع البراهين والدلائل في تقرير هذا الأصل، ألا وهو أن المعبود بحق هو الله جَلَّ وَعَلَا، وكل من سواه عبادته ضلال وباطل.

قال: (**وكيف دعَوْهم إلى عبادة الله وحدهُ لا شريكَ لهُ، مِنْ جهة أنَّهُ المتفرِّد بالربوبية، والمتوحِّد بالنعم، وهو الذي أعطاهم العافية، والأسماع، والأبصار، والعقول، والأرزاق، وسائرَ أصنافِ النعم، كما أنَّهُ المنفردُ بدفعِ النقم، وإنَّ أحدًا مِنَ الخلقِ ليسَ عنده نفعٍ ولا دفعٍ، ولا ضرٍّ ولا نفعْ**)؛ هكذا العبارة وفيها شيء من التكرار، قوله: (**ليسَ عنده نفعٍ ولا دفعٌ، ولا ضرٍّ ولا نفعْ**)؛ وغالبًا الذي يُذكر مع الدفع هو الرفع، وكله يتعلق بالمصيبة، ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٥٦]؛ كشفه: أي رفعه، وتحويله: أي دفعه، فالضر الذي ينزل بالإنسان أو يُخشى أن ينزل به يحتاج أن يُدفع أو يُرفع، يُدفع قبل أن

ينزل، ويُرفع إذا نزل، وهذا كله بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يدفع الضر والبلاء إلا هو، ولا يرفعه إذا وقع إلا هو، ومن يُدعا من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يملك من ذلك شيئًا، ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾.

قال: (**فإنَّهُ بمجرَّدِ معرفة العبدِ بذلك واعترافهُ به لا بدَّ أنْ ينقادَ للدين الحق الذي بِهِ تتمُّ النعمة، وهو الطريقُ الوحيدُ لشكرِها**)؛ وهذا ذكر الدلائل عليه، مر معنا في القاعدة الأولى سواءً الاستدلال لتوحيد العبادة بتوحيد الربوبية، أو الاستدلال لها بأن الله بيده المنع والعطاء، والضر والنفع، وغير ذلك، أو الاستدلال لها بأن النعم كلها بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [سورة النحل، من الآية:٥٣]؛ كل ذلكم مر معنا الاستدلال عليه في القاعدة العاشرة.

قال: (**وكثيرًا ما يحتجُّ على المشركينَ بِهِ في عبادتِهِ بإلزامهم باعترافهم بربوبيتِهِ، وأنَّهُ الخالقُ لكلِّ شيء، والرزاق لكلِّ شيء، فيتعيَّن أنَّهُ المعبودُ وحدهُ. فانظرْ إلى هذا البرهان، وكيفَ ينتقلُ الذهنُ منهُ بأوَّل وَهْلة إلى وجوبِ عبادة مَنْ هذا شأنهُ، ووجوبِ الإخلاصِ له**)؛ هذا أمثلته كثيرة ومر معنا شيءٌ منها، ومنها قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢١-٢٢]؛ قال ابن عباس وغيره: لا تجعلوا لله شركاء في العبادة وأنتم تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله.

فانتقل بأذهانهم من الإقرار بالربوبية وتفرد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنواع العطاء سبحانه جَلَّ وَعَلَا، وأنه لا شريك له في شيءٌ من ذلك، ونقلهم منه إلى وجوب إخلاص العبادة لمن هذا شأنه، أي: كما أنه تفرد وحده بالملك والخلق والعطاء لا شريك له في شيءٍ من ذلك؛ فليفرد وحده بالعبادة.

قال: وأيضًا (**ويجادلُ المبطلينَ أيضًا بذكرِ عيبِ آلهتهم، وأنها ناقصة من كل وجه، لا تغني عن أهلها شيئًا**)؛ وهذا أيضًا من البراهين التي تكررت في القرآن؛ كما أن الآلهة لا تملك لنفسها شيئًا؛ لا تملك موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا لنفسها، فكيف تملك شيئًا من ذلك لغيرها؟!

فعيب معبودات هؤلاء وأوثانهم، وذكر نقصها، وأنها لا تملك لنفسها شيئًا فضلًا أن تملك لغيرها؛ هذا من الطرائق التي سلكها القرآن في إقناع هؤلاء. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة الحج، من الآية:٧٣-٧٤]، ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة العنكبوت، من الآية:٤١]؛ فهذه الطريقة في القرآن تأتي كثيرًا. ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [سورة مريم، من الآية:٤٢]؛ هذه تأتي كثيرًا في القرآن عيب الأصنام والمعبودات وبيان نقصها، وأنها لا تملك لنفسها شيئًا، فضلًا أن تملك شيئًا من ذلك لغيرها.

قال: (**ويُقيمُ الأدلة على أهلِ الكتاب بأنَّهم مِنْ سوابقِ المُخالفاتِ لرسلهم ما لا يُستغرَبُ معه مخالفتهم لمحمَّد** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ)؛ وهذا أقرب ما يكون منه إلى دعوة هؤلاء أنه تسلية للنبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ والدعاة إلى الله.

وأن تكذيبهم للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ له نظير من أحوالهم فيما سبق مع الأنبياء، فليس الأمر بجديدٍ على هؤلاء؛ فإن كانوا كذبوا محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فقد كذبوا الأنبياء قبله -صلوات الله وسلامه عليه-.

قال: (**وينقضُ عليهم دعاويهم الباطلة وتزكيتهم لأنفسهم، ببيانِ ما يضادُّ ذلك مِنْ أحوالهم وأوصافهم**)؛ وهذه من طرائق القرآن، عندما يُزكِّي هؤلاء أنفسهم بالعقول -عندما يزكون أنفسهم بالعقول-، أو يزكون أنفسهم بأمورٍ أخرى مثل ما قال المشركون عن أنفسهم: نحن أهل السقاية، وأهل الخدمة للحاج، ونحو ذلك مما يأتون به؛ يبين لهم المعايب الأخرى الشنيعة الفظيعة التي هم عليها.

وأعظم شناعةٍ هم عليها كفرهم بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، واتخاذهم أصنامًا آلهة، يدعونها ويعبدونها وينزلون بها حاجاتهم وطلباتهم، وهي لا تملك لنفسها شيئًا فضلًا أن تملك لغيرها.

قال: (**ويُجادلهم بتوضيحِ الحق وبيانِ براهينِه، وأنَّ صِدقَهُ وحقيَّتَهُ تَدفَعُ بمُجرَّدِها جميعَ الشُّبَهِ المُعَارضةِ لهُ.** ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [سورة يونس، من الآية:٣٢])؛ وهذه مرت معنا إبراز محاسن الدين هي بحد ذاتها كافية في الإقناع.

قال: (**وهذا الأصلُ في القرآنِ كثير؛ فإنَّهُ يُفيدُ في الدَّعوة للحق، وردِّ كلِّ ما يُنافيه**)؛ هذا الأصل يعني إبراز محاسن الدين الإسلامي.

قال: (**ويُجادلُهُم بوجوبِ تنزيلِ الأمورِ منازلها، وأنَّهُ لا يَليق أن يُجعلَ للمخلوق العبدِ الفقير العاجزِ مِنْ كلِّ وجه، بعضَ حقوقِ الرب الخالق الغني الكامل مِنْ جميعِ الوجوه**)؛ وهذه أيضًا طريقة من طرق الإقناع لهؤلاء في القرآن الكريم: أن يطالب هؤلاء بوضع أمور مواضعها وهي الحكمة، بخلاف الظلم.

ولهذا كان المشركون بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أظلم الناس، ﴿لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [سورة لقمان، من الآية:١٣]؛ كانوا أظلم الناس؛ لأن أشد وضعٍ للأمر في غير موضعه وضع العبادة في غير موضعها، العبادة موضعها أن تُصرف لله وحده الذي تفرد بالخلق والرزق والعطاء والمنع، لا شريك له في شيء من ذلك؛ فمن صرف العبادة لغيره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من هذه الأصنام والأوثان فقد وقع في أظلم الظلم؛ لأنه لم يضع الأمور مواضعها، ولم يُنزلها منازلها، فهذه من الطرائق في إقناع هؤلاء. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٩٤].

قال: (**ويتحدَّاهُم أنْ يأتوا بكتابٍ أو شريعةٍ أهدى وأحسن مِنْ هذه الشريعة، وأنْ يُعارِضُوا القرآن فيأتوا بمثلِهِ إنْ كانوا صادقين**)؛ وهذا مر معنا شيءٌ من دلائله فيما سبق.

قال: (**ويأمرُ نبيَّهَ بمباهلة مَنْ ظهرت مُكابرتُهُ وعِنادُهُ**)؛ وهذه تأتي كمرحلة أخيرة في دعوة هؤلاء، لا يصار إلى المباهلة ابتداءً، وإنما تأتي مرحلة أخيرة يُحاول معهم بطرق وطرق ووسائل، ويُتدرج معهم في الدعوة؛ فإذا استعصت الأمور وأبى هؤلاء إلا المكابرة يُصار إلى المباهلة، والمباهلة يصح أن يقال فيها: "آخر الدواء الكي"، يعني لا يُصار إليها ابتداءً، وإنما يُصار إليها في نهاية المطاف.

ومن الأمور المؤسفة التي توجد أحيانًا بين بعض الشباب عندما يتناقش هو وصاحبه في مسألة لدقيقتين أو ثلاث، يقول لصاحبه: تباهلني، نتباهل، هذا كلام من لا يفهم، المباهلة ليست أمرًا يُصار إليه ابتداءً، وإنما هي تأتي كمرحلة أخيرة، يتدرج مع المدعو عبر مراحل جاء بيانها في كتاب الله، وسنة نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فإذا استعصت الأمور وأبى إلا العناد والمكابرة؛ فإنه يُصار حينئذٍ إلى المباهلة، والمباهلة أن يجتمع المتباهلين أو المتباهلون يجتمعون ويدعون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يُنزل لعنته وسخطه وعقابه ونقمته على الكاذب منهم، أو الخاطئ منهم؛ فهذه المباهلة.

وكان النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ إذا عرض على هؤلاء المباهلة ما يقبلون؛ لأنهم في قرارة أنفسهم يعرفون أنه نبيٌّ صادق عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ما يقبلون المباهلة؛ لأنهم يعرفون أنهم لو باهلوه حلَّت عليهم النقمة، ونزل عليهم سخط الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

ولهذا يقول الشيخ: (**ويأمرُ نبيَّهَ بمباهلة مَنْ ظهرت مُكابرتُهُ وعِنادهُ فينكُصُونَ عنها**)؛ يعني لا يقبلون المباهلة. (**لعلمهمْ أنّهُ رسولُ الله الصَّادق الذي لا يَنْطقُ عن الهوى، وأنَّهم لو باهلوهُ لهلكوا**).

قال: (**وفي الجملة لا تجد طريقًا نافعًا فيهِ إحقاقُ الحقِّ وإبطالُ الباطلِ، إلَّا وقدْ احتوى عليهِ القرآن على أكملِ الوجوه**)؛ وهذا يؤكد أن الواجب على كل من اشتغل بالدعوة إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يلزم طريقة القرآن وهي طريقة النبيين -عليهم صلوات الله وسلامه-.

القارئ:

قال رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى:

القاعدة الرابعة عشرة:

حذفُ المُتعلَّقِ المَعمُولُ فيهِ: يفيدُ تعميمَ المعنى المناسبِ له

وهذه قاعدةٌ مفيدةٌ جدًا، متى اعتبرها الإنسانُ في الآياتِ القرآنية أكسبتهُ فوائدَ جليلة. وذلكَ أنَّ الفعلَ أو ما هو في معناهُ متى قُيِّدَ بشيءٍ تقيَّدَ به، فإذا أطلقَهُ الله تعالى، وحذفَ المُتعلَّقَ فعمَّمَ ذلك المعنى، ويكونُ الحذفُ هنا أحسنَ وأفيدَ كثيرًا مِنَ التصريح بالمُتعلَّقات، وأجمع للمعاني النافعة، ولذلكَ أمثلة كثيرةٌ جدًا:

منها: أنَّهُ قالَ في عِدَّة آيات: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٥١-١٥٢-١٥٣]؛ فيدلُّ ذلك على أنَّ المرادَ: لعلكم تعقلون عن الله كلَّ ما أرشدكم إليه وكلَّ ما علمكموه، وكلَّ ما أنزلَ عليكم مِنَ الكتاب والحكمة، لعلَّكم تذكرون جميعَ مصالحكم الدينية والدنيوية، لعلَّكم تتقون جميعَ ما يجبُ اتقاؤهُ مِنْ جميع الذنوب والمعاصي.

الشيخ:

ثم قال رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى: (**القاعدة الرابعة عشرة: حذفُ المُتعلَّقُ وهو المَعمُولُ فيهِ: يفيدُ تعميمَ المعنى المناسبِ له**). قال: (**وهذه قاعدةٌ مفيدةٌ جدًا، متى اعتبرها الإنسانُ في الآياتِ القرآنية أكسبتهُ فوائدَ جليلة**). (**متى اعتبرها**)؛ أي: متى أعمل هذه القاعدة في الآيات القرآن. (**أكسبتهُ فوائدَ جليلة**)؛ لأنه سيظهر له من الآية معاني عديدة، بخلاف ما لو لم يُعمل هذه القاعدة لا يظهر إلا معنىً واحدًا، أو ربما قصر الآية على معنى واحد.

لكن إذا طبق هذه القاعدة وهي أن حذف المتعلق أو حذف المعمول فيه يفيد العموم بحسب المقام؛ فهذا يُعطي الإنسان فوائد عديدة يستطيع أن يستظهرها من الآية، بخلاف لو كان لم يُعمل هذه القاعدة لا يظهر له مثل هذه الفوائد، وبالأمثلة التي ساقها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى يتضح المراد.

قال: (**وذلكَ أنَّ الفعلَ أو ما هو في معناهُ متى قُيِّدَ بشيءٍ تقيَّدَ به، فإذا أطلقَهُ الله تعالى، وحذفَ المُتعلَّقَ فعمَّمَ ذلك المعنى**)؛ يعني لا تجعله قاصرًا على معنى واحد، وإنما اجعله عامًّا، أما إذا قيد فيكون بحسب ما قُيد به، أمثِّل بمثال ثم آتي إلى أمثلة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

مثلًا في بعض الآيات في ذكر البشارة -البشارة لأهل الإيمان- تارةً تأتي البشارة مطلقة غير مقيدة يعني حذف المتعلق، يقول تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [سورة يونس، من الآية:٦٤]؛ أو يقول: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [سورة الزمر، من الآية:١٧]؛ ولا يذكر بأي شيء، مثلًا لا يقول: بشرهم بالجنة، أو لا يقول: بشرهم برضا الله، أو بشرهم بسعادة الدنيا، أو بشرهم بالنجاة من سخط الله، أو بشرهم بالخير والبركة في الحياة، خذ من المعاني الجليلة المستفادة من هذا الإطلاق والتعميم. قال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾؛ ولم يذكر المتعلق، عدم ذكر المتعلق يفيد ماذا؟ العموم، فتكون البشارة شاملة لذلك كله. ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾؛ ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾؛ هذا يكون شاملًا لذلك كله.

لكن إذا جاءت البشارة مقيدة، ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [سورة التوبة، من الآية:٢١]؛ هنا قُيدت مثلًا بالرحمة، تأتي أيضًا آيات فيها البشارة مثلًا بالجنة، البشارة بالجنة، أو نحو ذلك، فتكون إذا قيدت تكون البشارة بحسب ما قُيدت به، وإذا أطلقت عمم المعنى، هكذا يقول الشيخ.

إذا أطلقت البشارة أو أطلق الأمر عمم المعنى لا تقيده؛ لأنه أُطلق في القرآن فيبقى على إطلاقه عامًّا، لكن إذا جاء مقيدًا فقيده بما قُيد به في الآية، إن كانت البشارة مثلًا قيدت بالرحمة تُقيدها بها، إن قيدت بالجنة تقيدها بها، إن قيدت بالرضا تقيدها بها، إن أطلق قال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾؛ ولم يذكربماذا؟ مالذي عليك أن تفعله؟ قال: عمم المعنى؛ يعني لا تجعله مقيدًا، والحال أنه قد أُطلق وعُمم في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: (**وذلكَ أنَّ الفعلَ أو ما هو في معناهُ متى قُيِّدَ بشيءٍ تقيَّدَ به**)؛ الفعل: (بشرهم)، ما هو في معناه: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾؛ قال: (**وذلكَ أنَّ الفعلَ أو ما هو في معناهُ متى قُيِّدَ بشيءٍ تقيَّدَ به**)؛ مثل ما مثلت بالبشارة إن كانت قيدت بالجنة نقيدها، إن قيدت بالرضا نقيدها بذلك، إن قيدت بالرحمة نقيدها بذلك.

قال: (**فإذا أطلقَهُ الله تعالى، وحذفَ المُتعلّقَ**)؛ ما معنى حذف المتعلق؟ قال: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾؛ ولم يقل: (بالجنة)، مثلًا، قال: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾؛ ولم يقل: (بالرحمة)، مثلًا، قال: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾؛ ولم يقل: (بسعادة الدنيا)، حذف المتعلق، ماذا علينا حينئذٍ؟

قال: (**فإذا أطلقَهُ الله تعالى، وحذفَ المُتعلَّقَ فعمَّمَ ذلك المعنى**)؛ ما معنى عممه؟ اجعله في كل معنًى يصلح أن يدخل في العموم، البشارة عمم قل: بالجنة، بالنجاة من النار، برضا الله، براحة الدنيا، بسعادة الدنيا؛ كل هذه المعاني داخلة؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ بشَّر وأطلق، فأفاد هذا الإطلاق العموم، بينما لو بشر وقيد تكون البشارة مقيدة بالشيء الذي قُيدت به.

قال: (**ويكونُ الحذفُ هنا أحسنَ وأفيدَ كثيرًا مِنَ التصريح بالمُتعلَّقَات**)؛ وهذه نكتة لطيفة ينبه عليها الشيخ، يقول: الحذف أحسن، الآن لما يقول: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾؛ هذا الإطلاق أحسن مما لو أنه سرد الأشياء التي يبشرون بها، أو سرد جملةً منها، لأن الإطلاق يعم ذلك كله، فيكون أحسن وأفيد كثيرًا من التصريح بالمتعلقات.

وأيضًا انتبه هنا إلى ملحظ نبه عليه أهل العلم قديمًا في هذا الباب: عندما يقول رب العالمين: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾؛ أو عندما يقول سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة الشورى، من الآية:٤٠]؛ هنا أطلق ولم يُعين نوعًا من الأجر، قال: ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ قال في الصائم سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قال: «**الصوم لي وأنا أجزي به**»، هنا ينبغي عليك -أيها المؤمن- أن تستحضر أمرًا عظيمًا نبه عليه أهل العلم قديمًا، ألا وهو أن العطية على قدر المعطي، إذا كان المُعطي هو من بيده سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أزمة الأمور، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة يس، من الآية:٨٢]؛ لا يتعاظمه شيء أن يعطيه مهما عظمت الحاجات، وعظمت الرغبات، مهما كانت الأمور؛ فالله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عطاؤه واسع ويده سحا لا يغيظها نفقة، سحاء الليل والنهار، عطاؤه كلام ومنعه كلام، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ فإذا قرأ المسلم مثل هذه الآيات: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾؛ ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ ونحو هذه الآيات والنصوص إذا قرأها ليستحضر أن المعطي واسع العطاء جَلَّوَعَلَا، عظيم المن لا يتعاظمه شيءٌ أن يعطيه.

قال: **(ويكونُ الحذفُ هنا أحسنَ وأفيدَ كثيرًا مِنَ التصريح بالمُتعلَّقات، وأجمع للمعاني النافعة، ولذلكَ أمثلة كثيرةٌ جدًا: منها: أنَّهُ قالَ في عِدَّة آيات: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾** [سورة الأنعام، من الآية:١٥١-١٥٢-١٥٣]**)**؛ وفي هذه كلها حذف المتعلق، قال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؛ ولم يُحدد شيئًا معينًا يعقلونه، لم يقل: لعلكم تعقلون الطريق الذي يوصلكم إلى الجنة، أو الطريق الذي تكون به نجاتكم من النار، لعلكم تعقلون ما يكون به صلاح عقولكم، لعلكم تعقلون ما تجدون به سفه عبادة الأصنام.. هذه أشياء معاني كثيرة حُذفت؛ حُذف المتعلق، فماذا يفيد حذف المتعلق؟ يفيد العموم، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؛ حذف المتعلق فأفاد العموم.

أيضًا قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾؛ ماذا الذي يتذكرونه؟ لم يذكر، فأفاد العموم، كل ما يناسب أن يُتذكر في هذا المقام داخل في قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، أيضًا قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾؛ تتقون الله، تتقون سخطه، تتقون عقابه، تتقون النار، تتقون الذنوب والآثام، أيها المراد هنا؟ أي هذه المعاني المراد؟ كلها لأنه حذف المتعلق فأفاد العموم، ولهذا نبهك الشيخ من البداية قال: إذا اعتبر الإنسان هذه القاعدة أكسبته فوائد جليلة في الآية، لكن لو لم ينتبه الإنسان لإعمال هذه القاعدة وقرأ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾؛ ربما قصر المعنى على اتقاء النار مثلًا، بينما هي أعم وأوسع من ذلك.

قال: **(فيدلُّ ذلك على أنَّ المرادَ: لعلكم تعقلون عن الله كلَّ ما أرشدكم إليه وكلَّ ما علمكموه، وكلَّ ما أنزلَ عليكم مِنَ الكتاب والحكمة)**؛ هذه كلها داخلة تحت قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، وقوله: **(لعلَّكم تذكرون جميعَ مصالحكم الدينية والدنيوية، و قوله لعلَّكم تتقون جميعَ ما يجبُ اتقاؤهُ مِنْ جميع الذنوب والمعاصي)**.

القارئ:

ويدخلُ في ذلكَ ما كان السياقُ فيهِ، وهو فردٌ مِنْ أفرادِ هذا المعنى العام.

ولهذا كانَ قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٨٣]؛ يفيدُ كلَّ ما قيلَ في حِكمة الصيام، أي: لعلَّكم تتَّقون المحارمَ عمومًا، ولعلَّكم تتَّقون ما حرّمَ الله على الصائمين مِنَ المفطِّرات والممنوعات، ولعلَّكم تتصفونَ بصفةِ التقوى،

وتتخلَّقونَ بأخلاقها، وهكذا سائرُ ما ذُكِرَ فيهِ هذا اللفظُ؛ مثلُ قولهِ: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢]؛ أي: المتَّقين لكلِّ ما يُتَّقى مِنَ الكفرِ والفسوقِ والعصيان، أي: المؤدِّينَ للفرائضِ والنوافل التي هي خِصالُ التقوى.

وكذلكَ قولهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٢٠١]؛ أي: إنَّ الذين كانت التَّقوى وصْفَهُم، وتَرْكُ المحارمِ شِعارُهم، متى زيَّن لهم الشيطانُ بعضَ الذنوب، تذكَّروا كلَّ أمرٍ يُوجِبُ لهم المبادرة إلى المَتاب كعظمة الله، وما يقتضيه الإيمانُ وما تُوجِبهُ التقوى، وتذكَّروا عِقابهُ ونكَالَهُ، وتذكَّروا ما تُحدِثُهُ الذنوبُ من العيوبِ والنقائص وما تسلِبُهُ مِنَ الكمالات، فإذا همْ مُبْصِرون، مِنْ أينَ أَتوا، ومبصرونَ الوجه الذي فيهِ التخلُّصَ مِنْ هذا الذنب الذي وقعوا فيهِ، فبادروا في التوبة النصوح، فعادوا إلى مرتبتهم، وعادَ الشيطانُ خاسئًا مدحورًا.

الشرح:

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (**ويدخلُ في ذلكَ ما كان السياقُ فيهِ**)؛ لمَّا مثَّل بقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾؛ وذكر أنها تفيد العموم لكون المتعلق حُذف، نبه أنها مع إفادتها العموم؛ أيضًا تفيد العموم بحسب السياق الذي وردت فيه، فمثلًا ورودها في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٨٣]؛ هنا أيضًا تفيد عمومًا يُستفاد ويُكتسب من الصيام، وهو أثر الصيام على الصائم في تحقيق تقوى الله جَلَّ وَعَلَا، فالآية قال الله فيها: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾؛ أي بصيامكم، لعلكم تتقون الله بقيامكم بعبادة الصيام، فما هي جوانب التقوى التي يُثمرها الصيام؟ أهي جانبٌ واحد أم جوانب عديدة؟

هي جوانب عديدة لم تُذكر في الآية، وحذف المتعلق هنا يفيد العموم، ولهذا يقول: (**يفيدُ كلَّ ما قيلَ في حِكمة الصيام، أي: لعلَّكم تتَّقون المحارمَ عمومًا، ولعلَّكم تتَّقون ما حرّمَ الله على الصائمين مِنَ المفطّرات والممنوعات، ولعلَّكم تتصفونَ بصفةِ التقوى، وتتخلَّقونَ بأخلاقها، وهكذا سائرُ ما ذُكِرَ فيهِ هذا اللفظُ**).

أيضًا مثل ما جاء في الحديث قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**الصيام جُنة من النار**»، أيضًا ندخل هذا المعنى في الآية: لعلكم تتقون النار، هي داخلة للعموم المستفاد من حذف المتعلق في هذه الآية الكريمة.

قال: (**مثلُ قولهِ**: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢])؛ ولم يذكر اتقوا ماذا؟ اتقوا الذنوب؟ اتقوا سخط الله؟ اتقوا ماذا؟ لم يُذكر في الآية، فحذف المتعلق يفيد العموم.

قال: (**أي: المتَّقين لكلِّ ما يُتَّقى مِنَ الكفرِ والفسوقِ والعصيان، أي: المؤدِّينَ للفرائضِ والنوافل التي هي خِصالُ التقوى**)؛ وسيأتي معنا أن التقوى -في قاعدة لاحقة عند المصنف-، أن التقوى إذا أُطلقت شملت الدين كله، أما إذا ضم إليها البر أو الإيمان، كانت التقوى في ترك المنهيات، والبر أو الإيمان يكون في فعل المأمورات.

قال: (**وكذلكَ**)؛ هذا مثال آخر، قوله: (**قولهُ:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٢٠١])؛ هذه الآية فيها ثلاثة أمثلة للقاعدة:

المثال الأول: في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾؛ حذف المتعلق، اتقوا ماذا؟ هل ذُكر؟ لا، لم يذكر، وهناك أمور عديدة محتملة، أيٌّ منها المراد؟ كلها مرادة، إذا حُذف المتعلق عمم. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾؛ أي الله، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾؛ أي النار، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾؛ أي الذنوب؛ كلها تعمها الآية لكون المتعلق حُذف.

المثال الثاني: قال: ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾؛ تذكروا ماذا؟ حُذف، لم يُذكر، حذف المتعلق، فماذا يفيد؟ هل المراد: تذكروا أي الله واطلاعه عليهم، ورؤيته لهم؟ تذكروا النار وأهوالها وشدائدها وعقاب الله على من أطاع الشيطان؟ تذكروا أضرار الذنوب وأخطار الذنوب، وعواقب الذنوب السيئة على العبد في الدنيا والآخرة؟ أيٌّ من هذه المعاني مراد؟ حُذف المتعلق؛ فيفيد العموم، قال: ﴿تَذَكَّرُواْ﴾.

﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾؛ مبصرون ماذا؟ ما ذكر شيئًا معينًا يبصرونه، وإنما حذفه فأفاد العموم؛ إذًا هذه قاعدة: وهي حذف المتعلق يفيد العموم بحسب الحال والمقام.

يوضِّح الشيخ يقول: (**إنَّ الذين كانت التَّقوى وصْفَهُم، وتَرْكُ المحارمِ شِعارُهم، متى زيَّن لهم الشيطانُ بعضَ الذنوب، تذكَّروا كلَّ أمرٍ يُوجِبُ لهم المبادرة إلى المَتاب**). لاحظ التعميم في قوله: (**تذكَّروا كلَّ أمرٍ يُوجِبُ لهم المبادرة إلى المَتاب**)؛ يعني يتذكرون رؤية الله، يتذكرون العقوبات، يتذكرون أضرار الذنوب.. أشياء كثيرة، ولهذا عمم الشيخ، من أين أخذ التعميم؟ من حذف المتعلق.

قال: (**تذكَّروا كلَّ أمرٍ يُوجِبُ لهم المبادرة إلى المَتاب كعظمة الله، وما يقتضيه الإيمانُ، وما تُوجِبهُ التقوى، وتذكَّروا عِقابهُ ونَكَالَهُ، وتذكَّروا ما تُحدِثُهُ الذنوبُ من العيوبِ والنقائص وما تسلِبُهُ مِنَ الكمالات**)؛ هذه المعاني كلها داخلة تحت قوله: (**تذكَّروا**).

وقوله: (**فإذا همْ مُبْصِرون**)؛ مبصرون ماذا؟ (**مُبْصِرون مِنْ أينَ أَتوا، ومبصرونَ الوجه الذي فيهِ التخلُّص مِنْ هذا الذنب الذي وقعوا فيهِ، فبادروا في التوبة النصوح، فعادوا إلى مرتبتهم، وعادَ الشيطانُ خاسئًا مدحورًا**)؛ فهذه آية اجتمع فيها ثلاث أمثلة لهذه القاعدة.

القارئ:

وكذلكَ ما ذُكِرَ على وجهِ الإطلاق عن المؤمنين.

الشيخ:

الشيخ -عفوًا- الشيخ نبه في الشرح على مثالين للآية، وهي فيها ثلاث أمثلة:

الأول منها التقوى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾.

القارئ:

وكذلكَ ما ذُكِرَه على وجهِ الإطلاق عن المؤمنين بلفظِ: "المؤمنين"، أو بلفظ: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ونحوها، فإنَّهُ يدخلُ فيهِ جميعُ ما يجبُ الإيمانُ بهِ من الأصولِ والعقائد، معَ أنه قيَّدَ ذلكَ في بعضِ الآيات مثلُ قولهِ: قُولُوا آمَنَّا بِالله ونحوها.

الشيخ:

ثم ذكر هذا المثال قال: (**وكذلكَ ما ذُكِرَه على وجهِ الإطلاق عن المؤمنين بلفظِ: "المؤمنين"، أو بلفظ: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ونحوها**)؛ فإنه يدخل فيه جميع ما يجب الإيمان به من الأصول والعقائد، نحن مر معنا في قاعدة أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف تفيد الاستغراق، ومثَّل الشيخ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣٥]، قال: هناك أدخل في هذه الأوصاف كل ما تناوله من معاني الإسلام والإيمان إلى آخره، فإذًا عندما تأتي في آية ويقول: المؤمنين، ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾؛ لو قال لك قائل: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ بماذا؟ ما المراد هنا؟ لم يذكر الله عَزَّوَجَلَّ شيئًا معينًا، فيكون المعنى عامًا، شاملًا لكل ما أمر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بالإيمان به، فقوله: "إن المؤمنين"؛ أي بكل ما أمرهم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن يؤمنوا به، هذا هو المراد، وهذا تفيده القاعدة وتفيده (ال) التي تفيد الاستغراق، استغراق الأوصاف.

بينما إذا قيد يكون بحسب ما قيد به، ولهذا يقول الشيخ: (**في بعضِ الآيات مثلُ قولهِ: قُولُوا آمَنَّا باللهِ ونحوها**)؛ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٨٥]؛ هنا قيدت، فإذا قيد يكون بحسب ما قيد به، وإذا أُطلق يفيد العموم.

القارئ:

وكذلكَ ما أمرَ بهِ مِنَ الصلاح والإصلاح، وما نهى عنهُ من الفسادِ والإفساد مُطلقًا، يدخلُ فيهِ كلُّ صلاحٍ كما يدخلُ في النهي كلَّ فساد.

الشيخ:

وهذا مثل ما سبق، يعني أمر الله بالصلاح ولم يُحدد في أمره بالصلاح أبوابًا معينة من الصلاح، وأيضًا نهى عن الفساد في آياتٍ كثيرة، ولم يُحدد شيئًا معينًا من الفساد يُنهى عنه، فماذا يكون الأمر؟ يكون عامًّا عمم.

القارئ:

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٩٥]، ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٩٥]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [سورة يونس، من الآية:٢٦]، ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [سورة الرحمن، من الآية:٦٠].

يدخلُ في ذلكَ كلِّه الإحسانَ في عبادة الخالقْ، بأنْ تعبدَ الله كأنَّكَ تراهُ فإنْ لمْ تكنْ تراه فإنَّهُ يراك، والإحسانُ إلى المخلوقين بجميعِ وجوهِ الإحسان مِنْ قولٍ، وفعلٍ، وجاهٍ، وعلمٍ، ومالٍ وغيرها.

الشيخ:

وهذا أيضًا مثال الآيات التي فيها ذكر الإحسان والمحسنين والأمر بالإحسان، ولم يعين إحسانًا معينًا طُلب من العبد أن يقوم به، إن قُيد الإحسان في آية يكون بحسب ما قُيد به، ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانًا﴾ [سورة البقرة، من الآية:٨٣]، لكن إذا جاءت الآية: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٩٥]؛ ولم يقيده بشيء معين، القاعدة عندنا: أن هذا يفيد العموم، فقوله: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ﴾؛ يتناول الإحسان بأداء حقوق الله على أتم وجهٍ وأكمل حال، ويكون أيضًا بالإحسان إلى عباد الله، بدءً بالوالدين فهما أحق الناس بالإحسان وحُسن المصاحبة، والقرابة والجيران إلى آخره.

فكل ذلك داخل تحت قوله: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ﴾؛ وداخل تحت قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٩٥]، لم يقل: إن الله يحب المحسنين في عبادة الله، ولم يقل: إن الله يحب المحسنين في حق الوالدين، أو في التعامل مع الناس، لم يعين، فإذًا قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ يبقى عامًّا متناولًا لكل أبواب الإحسان.

كذلك قوله: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ﴾؛ يتناول جميع أبواب الإحسان، وكذلك قوله: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [سورة الرحمن، من الآية:٦٠]؛ الإحسان بعبادة الله، الإحسان ببر الوالدين، الإحسان بالقيام بحقوق العباد إلى غير ذلك. ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾؛ الإحسان من الله بماذا؟ أيضًا نفس القضية، الإحسان إليه برضاه عنهم، بتوسيع النعم، بنجاتهم من النار، فهنا الإحسان لم يُذكر متعلقه؛ فيفيد العموم.

القارئ:

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [سورة التكاثر، من الآية:١]؛ فحذَفَ المُتكاثَر بِهِ لِيَعُمَّ جميعَ ما قصدَ النَّاس فيه المُكاثرةِ: من الرياسات والأموال والجاه والضيعات والأولاد، وغيرها ممَّا تتعلَّق بِهِ أغراضُ النفوس ويُلهيها عنْ طاعة الله.

الشيخ:

كذلك قوله: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾؛ لو قال قائل: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾؛ أي: بالأموال، إن كان أراد بذلك تفسير الآية ببعض أفرادها لا بأس، أما إن أراد أن يحصر معنى الآية في ذلك فهو مخطئ. لماذا؟ لأن المتعلق حُذف فيفيد العموم، فلا نقصر ما حُذف متعلقه على معنى واحد، ونجعل الآية دالةٌ عليه حصرًا دون غيره.

بل حذف المتعلق يفيد العموم، لا بأس إن فُسرت الآية ببعض أفرادها لا على وجه حصر المعنى به، لو قال: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾؛ بالأموال على سبيل بيان الآية بشيء من أفرادها، لا بأس، لكن لو قال: إن المراد بالآية: التكاثر بالمال دون غيره، من أين لك دون غيره؟ والآية حُذف المتعلق فيها فهي تفيد العموم، فإذًا ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾؛ يعني: بالأموال، بالأولاد، بالتجارات، بأمور الدنيا إلى آخره، يشمل ذلك كله.

القارئ:

كذلك قوله: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [سورة العصر، من الآية:١-٢]؛ أي في خسارة مِنْ جميعِ الوجوه، إلا مَنْ اتَّصفَ بالإيمان والعمل الصالح، والتَّواصي بالحقِّ والصبر.

الشيخ:

قوله: ﴿لَفِي خُسۡرٍ﴾؛ هنا أيضًا حذف المتعلق، هل حُدد نوعٌ معينًا من الخسران؟ أهو خسران في الدنيا؟ أهو خسران في الآخرة؟ أهو خسرانٌ في راحةٍ أو في صحة أو في غير ذلك؟ لم يُذكر، فأفاد العموم.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾؛ ولا يستثنى من ذلك إلا من اتصفوا بالأربعة صفات التي ذُكرت في الآية.

القارئ:

وقوله: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٤٣]؛ فذكرَ المسئولين وأطلقَ المسئولَ عنه، ليعُمَّ كلَّ ما يحتاجهُ العبدُ ولا يعلمه.

الشيخ:

حذف المتعلق هنا هو في قوله: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾؛ ولكن لم يذكر شيئًا معينًا نسألهم عنه، لم يُحدد شيئًا معينًا أو مجالًا معينًا من أمور الدين نسألهم عنه، قال: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾؛ فأفاد ذلك أن كل أمرٍ شرعي لا يسأل عنه إلا أهله، أهل الذكر، فحذف المتعلق هنا يفيد العموم، فلو قلت الآن: كل مسألة شرعية لا يجوز أن نسأل فيها إلا عالم بالشريعة، من له علمٌ بدين الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

كل مسألة هذا التعميم منك صحيح أو لا؟ صحيح، لأن قال: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ﴾؛ وحذف المسئول عنه فأفاد العموم.

القارئ:

وكذلكَ أمْرُهُ تعالى بالصبر، ومحبَّة الصابرين، وثناؤهُ عليهم، وبيان كثرة أجورهم، مِنْ غيرِ أنْ يُقيِّدَ ذلك بنوع، ليشملَ أنواعَ الصبرِ الثلاثة وهي: الصبرُ على طاعة الله، وعنْ معصيتِهِ، وعلى أقدارِهِ المُؤلِمةِ.

ومقابِلُ ذلكَ ذمَّهُ للكافرينَ والظالمينَ والفاسقين والمشركينَ والمنافقينَ والمعتدين ونحوهم، مِنْ غيرِ أنْ يُقيِّدَهُ بشيءٍ ليشمل جميع ذلك المعنى.

الشيخ:

هذا أيضًا مثال أمر الله بالصبر: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٢٠٠]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، ودلت النصوص أن الصبر أنواع: صبرٌ على الطاعة، وصبرٌ عن المعصية، وصبرٌ على أقدار الله المؤلمة، فإذا قرأنا هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ﴾؛ وقال لنا قائل: أيُّ نوعٍ من الصبر المراد هنا؟

الجواب: الآية تُفيد العموم لحذف المتعلق، اصبروا أي على طاعة الله، واصبروا عن معصية الله، واصبروا على أقدار الله المؤلمة.

وأيضًا الأمثلة الأخرى: (**ذمَّهُ للكافرينَ والظالمينَ والفاسقين والمشركينَ والمنافقينَ والمعتدين ونحوهم، مِنْ غيرِ أنْ يُقيِّدَهُ بشيءٍ**)؛ يعني بشيء من الكفر، أو شيء من الفسق، ليفيد العموم في ذلك كله.

القارئ:

ومِنْ هذا قوله: ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٩٦]؛ ليشملَ كلَّ حصر.

الشيخ:

قوله: ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾، ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٩٦]؛ أحصرتم بماذا؟ هل نستطيع أن نُحدد بنوع معين من الحصر ونقول: الآية لا تدل إلا عليه؟ أبدًا. ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾؛ حذف المتعلق هنا يفيد العموم؛ أي: نوع من الحصر الذي يكون به العبد غير متمكن من أدائه للحج يذبح ما استيسر من الهدي.

القارئ:

﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٣٩]؛ ليَعُمَّ كلَّ خوف.

الشيخ:

قال: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾؛ ولم يذكر شيئًا معينًا يخاف منه، فأفاد ذلك العموم (**ليَعُمَّ كلَّ خوف**).

القارئ:

وقدْ يُقيِّدُ ذلكَ ببعضِ الأمور، فيتقيَّدُ بِهِ ما سِيقَ الكلامُ لأجلِهِ.

الشيخ:

لعلها: (**ما سِيقَ**)؛ ها!. (**وقدْ يُقيِّدُ ذلكَ ببعضِ الأمور، فيتقيَّدُ بِهِ ما سِيقَ الكلامُ لأجلِهِ**)؛ كأنه -والله أعلم- الأقرب (**ما سِيقَ**)، تتأمل إن شاء الله.

القارئ:

وقدْ يُقيِّدُ ذلكَ ببعضِ الأمور، فيتقيَّدُ بِهِ ما سِيقَ الكلامُ لأجلهِ.

وهذا شيءٌ كثير لو ذهبنا نذكرُ الأمثلة لطالتْ، ولكنْ قدْ فُتِحَ لكَ الباب، فامشِ على هذا السبيل المُفضي إلى رياضٍ بهيجةٍ مِنْ أصنافِ العلوم.

الشيخ:

وهنا تلمس نُصح الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، وأنه حريصٌ جدًا على العناية بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ وحُسن فهم معانيه، ويقول: هذه الأمثلة تفتح لك الباب، فإذا فهمت القاعدة، وفهمت بعض الأمثلة؛ انفتح لك الباب فامشي على هذه السبيل المفضي إلى رياضٍ بهيجة من أصناف العلوم.

وأيضًا هنا تعبير الشيخ بهذه العبارة الجميلة، قال: (**رياضٍ بهيجةٍ**)؛ أهل العلم الذين للعلم شأنٌ في نفوسهم ومكانة في قلوبهم هكذا يرون العلم، مثل ما يرى غيرهم أن الفسحة والنزهة في الحدائق والبساتين والرياض هم يجدون نزهةً ومتعةً وأُنسًا في مسائل العلم.

ولهذا بعض أهل العلم سموا مصنفاتهم بأسماء تفيد هذا المعنى مثل: [**رياض الصالحين**]، ومثل: [**الروض المربع**]، ومثل: [**بستان العارفين**]، وأشياء من هذا القبيل سموا مصنفاتهم من هذا القبيل؛ لأن هو من قرارة نفسه يرى أن العلم بُستان، فيه من أنواع الثمار وأنواع الزهور وأنواع الخيرات، يتنقل في هذا البستان من روضةٍ إلى روضة، ويجد فيه متعًا وأُنسًا ولذةً ربما لا يجدها من يذهبون إلى الفسحة وإلى النزهة، ولا يعني أن أهل العلم لا عناية لهم بالنزهة والفسحة، لا، لكن هذا تعبير عن مكانة العلوم في نفوسهم.

وكان -بالمناسبة- الشيخ عبد الرحمن بن السعدي كما ذكر بعض قراباته كان من عاداته يخرج قبل المغرب بساعة أو نصف ساعة من بيته إلى المسجد فيمشي بين النخيل، ثم يتوضأ من الوادي -الماء الذي يكون في المزارع- يتوضأ منه ويتمشى من هناك ويذهب إلى المسجد، هذه الحركة تُفيد المسلم، ولأهل العلم عناية بهذا الجانب، لكن العلم بحد ذاته روضة وبستان، يذوق لذته وطعمه من عرف مكانة العلم.

وإلا من لا يعرف مكانة العلم إذا وُضع بيده كتاب مليء بالفوائد والنفائس واللطائف وطلب منه قراءته؛ كأن فوق رأسه جبل، بينما الذي يذوق العلم ولذته يقرأ الكتاب وكأنه في بستان، ففرقٌ بين النظرين، وفرقٌ بين الحالين.

مَنَّ الله علينا جميعًا بالعلم النافع، والعمل الصالح، وهدانا سواء السبيل، وصلى الله وسلم على رسول الله.